الفصل الثالث

حول محور الدِّين

obeikandl.com

obeikandl.com

العمل بالرؤيا

سؤال: هل الرؤيا مصدر حكم؟

الجواب: الرؤيا "من المبشرات" كما ورد في الحديث[٥٩]، فالله ﷻ يسوق إلينا البشارات عن طريق الرؤى، وأرى أن هذا من باب الأفضال والألطاف على غِرار ما يُعطَى للأطفال من الحلوى.

ولا شك أن للرؤيا حقيقةً ما، والسؤال عن العمل بها لا عنها، فلنُعنَ بموضوعه، ومن المفيد الإشارة هنا أيضًا إلى حكم العمل بغير الرؤيا من وسائل الاتصال بعالَم الملكوت.

إن ساحة التكاليف هي "اليقظة"، وهذا يعني أن النوم والإغماء ونحوهما عوارضُ يرتفع بها التكليف، فليس فيهما ما يمكن أن تستند إليه الأحكام، والآمر والمأمور في هذا سواء، لذا لا يكفر من تفوه بكلمة الكفر في نومه، وكذا الإغماء علّة لرفع التكاليف الشرعية.

وعندما ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية، يتعذر القول بأن ثمة قيمة موضوعية لبشارات الرؤى أو إنذاراتها إيجابيةً كانت أم سلبيةً،

(٥٩) صحيح البخاري، التعبير، ٥؛ سنن الترمذي، الرؤيا، ١.

فـلا تُقبـل دليلًا أو حجـة ملزمة، والمقبول هنا أن فـي موافقة الرؤى للشـرع الشريف وملاءمتها رسائلَ خاصة للرائي وقيمةً مالم تُعارض الكتاب والسنةَ وإلا فلا.

ولنَفترض أن إنسـانًا تيسَّـر لـه أداء فريضة الحج فلـم يحجّ لأنه رأى رؤيـا أَنْ لا تحـجَّ، فهذا باطل قطعًا؛ فرؤياه هذه ليسـت دليلًا أو مسـتندًا شـرعيًّا ألبتة؛ لأن فريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة، ويلزم كلَّ من وجد إليها سبيلًا أداؤها، وأعذار ترك الحج محددةٌ مبينة في كتب الفقه المستمدة من الكتاب والسنة، ولو أن إنسانًا رأى رؤيا بل مائة رؤيا خلافَ هذا، فلا قيمةَ لها وعليه العمل بالأحكام الفقهيَّة.

واسـتغلالُ الـرؤى لإلـزام الآخرين بشـيءٍ ما خطأٌ فـادح أيضًا، ومعناه معارضة النصّ حتمًا؛ والذي يمكن أن يُسلَّم به هو أن الرؤى موجِّهة لمن يراها فحسب في المباحات؛ ويستحيل القول بأن للرؤيا وزنًا يساوي حكمًا استنبطه المجتهدُ من الكتاب والسنة النبوية...

ومـا قلتـه في العمل بالرؤى ينطبق عنـدي على غيرها من طرق الاتصال بعالم الملكوت:

من ذلك أنه قد يتمثل سـيدنا رسـول الله ﷺ لإنسـان فيلتقي به، ومـن بـاب المحال نفرض أنه قال له أمرًا يخالف الموازين الشـرعية -هـذا فـرضٌ محال وأجدني أرتجف وأرتعش مـن ذكره- فلا يجوز لـه العمل بقـولٍ يعارض الموازين الشـرعية، وليس لـه أن يعدّ لقاءه برسـول الله حجّة ودليلًا. أجل، إن تعظيم سـيد الأنبياء صلوات ربي

وسلامه عليه وتوقيره مسألةٌ، وكون سنته حجّةً ودليلًا واتباع حياته ونبوّته مسألةٌ أخرى، وإنما اخترْتُ رسول الله مثالًا ليشمل الحكمُ مَنْ سواه بطريق الأَوْلى، أي لو تمثل الأنبياء حقيقةً لإنسانٍ ما، وكذا الأولياء فالحكم لا يتغير، بل يتبع الرائي الضوابط الشرعيّة دون سواها ويبني عليها.

ومنهم مَنْ يتوهَّمُ الاتصالَ بعالم الملكوت عن طريق الجنّ، وهنا أقول بلغة واضحة قاطعة: هذا ليس طريقًا ألبتة؛ فالجن مقارنة بالبشر أضعف وأقل قابليةً واستعدادًا، وما يقولونه تسعةٌ وتسعون بالمائة منه كذب، لهذا قد تكون القرارات التي تتخذ بناءً على كلامهم تسعةٌ وتسعون بالمائة منها خطأ، والكهانة أيضًا صارت ظاهرةً في يومنا هذا، والكُهّان أنفسهم محتاجون إلى مساعدة، لذا فتوقُّعُ الفائدة منهم ليس إلّا خداعًا للنفس.

وللجن قدرة على الظهور بأشكال وصور مختلفة، ولهذا السبب فليس ببعيد أن يخدعوا بعضَ الناس، فكم خَدَعوا واستَغْفَلوا بهذا الأسلوب، وبلغ مِن خداعهم أنّ مِن أولئك المساكين من ظن نفسه المهدي، بل النبيّ.

ويلحق بهذا الموضوع المخاطر التي تحفّ بطريق الولاية أيضًا، وحسبنا الإشارة إليها لأنها تحتاج بحثًا مفصَّلًا.

إن ما يرد من مشاهدات أو معلومات من طرق الاتصال بعالم الملكوت كالرؤى وغيرها ليست أحكاما تلزم الإنسان وتقيّده شرعًا،

لا سيما إذا عارضت الموازين الشرعية؛ فهذه يمتنع الالتفات إليها قطعًا، وما ينبغي للمسلم أن يفكِّر في أمرٍ كهذا أصلًا.

وهذا خشيةَ أن يخسر المؤمنون في وقتٍ هو أدعى للكسب بأن يتنكبوا عن الصراط المستقيم -نسأل الله السلامة- سواء بسبب الرؤى أم حالات الواقعة أم باستخدام الجن والشياطين؛ فهذا "غلام أحمد" سقط في مأزقٍ كهذا فخسِرَ، لقد بلغ ما بلغ في تعزيز الروح بقوّة مميّزة في الهندوسيّة وفلسفة اليوجا، ثم سلك الطريق نفسه ليُثبِت رفعة الإسلام، فَضَلَّ، وقضى ستة أشهر بلا طعام أو حاول ذلك، ليبرهن للبراهمة والبوذيين على رفعة الإسلام كما قيل.

ناشدتكم الله هل هذا هو السبيل لتبليغ الإسلام وبيانه؟ ثم قال غلام أحمد: "أنا المهدي، أنا الإمام المنتظر، أنا رسول!" ثم قال -حاشا- "أنا الله!" معتقدًا بالحلول والاتحاد.

إنَّ استخدام الجنِّ والشياطين انحرافٌ عن الصراط المستقيم. أجل، إن هذا الضرب من المسائل أي العمل بالرؤى، والركون إلى أحوال الواقعة، واستخدام الجن... إلخ دائمًا ما تبدأ عادةً هكذا في حدود المشاعر والمقاصد الإسلامية النزيهة، ثم إذا بكم قد زللتم، ولمزيدٍ من الإيضاح إليكم مثالًا:

إن اتباع الكتاب والسنة هو الواجب، ولو رقيتم إلى السماوات مثلًا، والتقيتم بسيدنا رسول الله ﷺ فوق الزمان والمكان، وحظيتم

برؤية تجليات الحق تعالى عيانًا، فلا يعادل شيءٌ من هذا تطبيقَ السنّة السَّنيّة.

إذًا علينا ألا نخرج عن عموم دائرة المسلمين، وأن نسيرَ على أرض ثابتة، ونقول: "لَأَنْ نكون جنودًا أفضل من أن نكون قادة"، وليكن أحدنا فردًا من الناس، فهذا سيدنا عمر ﷺ أثنى عليه أحدٌ بعدما أصيب قائلًا: "أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدَمٍ فِي الإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ"، فتبسم عمر الفاروق بمرارة فقال: "وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لَا عَلَيَّ وَلَا لِي"[٦٠] أي وددتُ أني خرجتُ من الدنيا كما دخلتُ فيها، لا أجر ولا وزر؛ وأنا الفقير أيضًا لا أتمنّى لنفسي سوى هذا.

إن الله لن يتخلَّى عنكم، وسيمنُّ عليكم بما منَّ به على الأولياء إن اصطبغتم بالمشاعر الخالصة، وتمسكتم بـ"الكتاب والسنة"، وجعلتم الدساتير الماسيّة لـ"الشريعة الغراء" ومعالم الطريق المستقيم دستورًا للحياة.

إن الكتاب والسنة بين أيدينا، فلا شيء يؤخذ به مما لم يصح في ديننا، وحسبُكم من الرُّؤى التي ترونها وأحوال الواقعة أن تطير بكم وتغدو حافزًا لِهِمَمِكم.

---

(٦٠) صحيح البخاري، فضائل أصحاب النبيّ، ٨.

سبل الخلاص من الذنوب

سؤال: ما الذي ينبغي مراعاته عندما نقع في الذنوب ونريد الإقلاع عنها والتوبة منها؟

الجـواب: التوبة أكبر حصن لنـا لمواجهة الذنوب، وثمة أمور لا بـد مـن مراعاتها في هـذا لما لها من أهمية عظيمة فـي حياتنا القلبية والروحية:

١- الندمُ على فعل الذنب

ولهـذا الأمر صلةٌ قويّةٌ بحالة الإنسـان الروحية وقتئذ، أي عندما يسـجد العبـد نادمًا على مـا اقترف، ويجأر ويبكـي، ويبتهل متضرعًا يرجـو مغفـرة ذنبـه، ولا يقنـع بالآهات والبـكاء والنـدم، ولا تُطفِئ الصرخـات نـار الفـؤاد، فعسـى أن يكـون هـذا الحزن الـذي يزلزل جوانيتكم أرجى لقبول التوبة وأمضى لها عند الله تعالى.

قد تمر بالسـوق، فيقـع بصرك على الحرام خطأً، فتحدِّث نفسك قائـلًا: "آهٍ! مـاذا فعلـتُ؟! زلّ نظري إلى الحـرام وارتكبت إثمًا بينما ينبغـي أن أتوجّـه إلـى الله تعالـى فـي كل لحظـة بعـدد ذراتـي، وقد كان بوسـعي أن أغـضّ بصـري، أو أختار طريقًا سـليمًا آمنًا ولو كان

طويلًا... إلخ"، ثم تسارع إلى مصلى هناك لتخرّ ساجدًا تئنُّ وتتأوَّه، فإن ضاقت عليك الدنيا من هذا الحزن الذي أحاط بقلبك، لم يبقَ بينك وبين التوبة الحقيقية إلا ذِراع. أجل، التوبة في الأصل ندم وحسرة وحرقة في القلب.

والمهم هو أن تستشعر أن العيش في الذنوب كالعيش مع العقارب والثعابين، وتلك هي نظرة المؤمن للذنوب، وهكذا فلتكن، وإلّا فهو شكّ بعاقبة الذنوب وعقوبتها.

إن من الأهمية بمكان إظهارَ الندم على فعل الذنب بتسارعِ دقات القلب وسرعةِ تدفق الدم في الأوردة وتغير دورته.

٢- أَجَلُ الذنبِ لا بد أن يكون قصيرًا

إذا ما زلّ أحدكم في موضعٍ ما، وارتكب ذنبًا وانزلقت قدمه في مستنقع الذنوب، فلينهض من فوره، دون انتظار، وليتطهّر بالتوبة والاستغفار، ليتطهّر ولا يؤجّل ألبتة؛ فمن ذا الذي يملِكُ سندًا أو وثيقةً تؤكّدُ أنَّه لن ينتقل إلى ربّه بعد ساعةٍ وهو يحمل وِزرًا على ظهره أثقل من جبل قَافْ؛ إنَّ الأرواحَ الطاهرةَ تجافيها الراحةُ، ولا تَغمض لها عين مالم تتطهر مما ارتكبته من الذنوب.

إنَّ إطالةَ عمر الذنب ولو ثانيةً يضرُّ صاحبَه ولا ينفعه، والأنكى أنَّه توقيرٌ لسوءِ الأدب الذي ارتكبه المذنب في حق الله تعالى، فلا حقَّ لأيِّ ذنبٍ أنْ يعيشَ ولو ثانيةً؛ إذ إنَّه سيغدو ثعبانًا سامًّا يقرِضُ القلب ما لم يُمْحَ بالتوبة فورًا، وإذا ما تكدَّرَ القلبُ مرَّةً تهيَّأ لأكدارٍ

أخرى، وهكذا يتردَّى الإنسان في دائرةٍ فاسدةٍ، ويولّد كلُّ ذنب ذنبًا آخر إلى أنْ يتجلَّى سرُّ الآية الكريمة: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣).

ولذلك فمِنَ الأهميّةِ القصوى جذبُ مشاعر الناس وأفكارهم إلى هذه الساحة دائمًا، وتوضيح تلك الحقائق لهم، وتحذيرهم من الذنوب ليكونوا يقظين فطنين لها؛ بل إننا حتى لو تمتّعنا بقوّة الولاية لكان علينا أن نُظهِر لهم الوجه القبيحَ للذنوب ما أمكن وأن نصرِفَهُمْ عنها.

أجل، ها هم أولاء ذوو القلوبِ الفطنة اليقظة والأرواح الحساسة كأني بهم يشتمّون رائحةً كريهةً يجلبها الذنبُ.

٣- بُغْض الذنب

إنّ بُغضَ الذنب من أهمّ عوامل التوبة عن الذنب، وعدم بغضه يثبّط العزم عن الفرار منه فرارِ الناسِ من الثعبان والعقرب، فإن عجز الإنسانُ عن الفرار والتقوى استحالت توبته وعزمه وتصميمه على عدم ارتكاب ذلك الذنب مرةً أخرى، وكما يُوَلْوِلُ وينوحُ مَن انكسرت له زهريّة كريستال نادرة جدًّا فكذلك الأمر هنا أيضًا، والمقصود أن مصباح الحياة الذي بأيدينا يتّسخ وينكسر مع كلّ ذنبٍ نرتكبه؛ وفي هذه الحالة ينبغي على الأقل أن نشعر بالحزن والأسى على ما نرتكب من الذنوب بقدر الحزن والأسى الذي نشعر به عند انكسار زهريّة الكريستال، وإلا عُدَّ ذلك استخفافًا بالذنب وإهمالًا.

٤- التوازن بين الذنب والتوبة

لا بُدَّ لكلِّ ذنبٍ من توبةٍ بقدر عمقه وقبحه ووقاحته؛ لأنَّ الوقوع في الذنبِ كالتردِّي في بئر مليءٍ بالزِّفت، فالسقوط في بئرٍ كهذا يسير، أمَّا الخروج منه فعسيرٌ جدُّ عسير.

٥- الاعتراف بحقيقة الذنب

إنَّ كلَّ خاطرةٍ تعترضُ بها قلوبُنا على حكم الذنب أقلُّ ما يُقال فيها إنّها ذنب يعدل ارتكاب ذلك الذنب، فلو حدَّثَ زانٍ نفسَهُ من حينٍ إلى آخر قائلًا: "لماذا حرَّمَ الله الزِّنا؟"؛ ولو أنّ امرءًا لا يُفرِّق بين الحلال والحرامِ قال في نفسه: "ليته لم يُشرَعْ شيءٌ اسمُهُ حرام، كم سيكون الأمرُ ممتعًا حينئذ!"؛ فهذه ذنوبٌ أعظمُ من ارتكاب الذنوبِ نفسِها.

إذًا لا بُدَّ أن نتصدَّى للذنوبِ وأن نصمُدَ أمام أنفسنا قائلين: "أيها الذنب سعيك هباء، فالأبواب موصدة أمامك والدخول مستحيل!".

ولبديع الزمان في هذا الموضوع تشبيهٌ ذو مغزًى عميق؛ يقول: "اجتنبوا -يا إخوتي- الأسباب التي تقدح بالإخلاص وتَثْلِمه كما تجتنبون العقارب والحيات"[٦١]؛ وعدوله عن لفظ الأسد أو النمر هنا إلى لفظ العقرب والثعبان لافتٌ للنظر جدًّا؛ لأن الأسد والنمر يهجمان ببسالة وإقدام، فنشعر بهما قبل أن يهجما فنحتاط؛ والعقرب

(٦١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢٢١.

والثعبان والحيّة على خلاف ذلك؛ إذ لا يُعرف من أين ومتى تَدْهَمُنا؟ وهكذا الذنب، فهو غدّار مثل العقرب والثعبان.

والحاصل أنَّه لا بُدَّ أن تكون اليقظةُ الدائمةُ إزاءَ الذنوبِ شعارَ المؤمن، وليُعلَمْ أن هذا من الوفاءِ بعهدِ الله تعالى.

يمكن أن ننظر إلى هذه المسألة في ضوء الحديث الشريف: "**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**"(٦٢).

معلومٌ أنّ كلمتي "ذَنْب" و"ذَنَب" من جَذْرٍ واحد، والذنبُ الإثمُ، والذَنَبُ الذيلُ، وعلى هذا فالعبد الذي يقول "رباه أذنبتُ" كأنه يقول: "اللهم إني ثعلب بذَنَب، أو عقرب يلدغ، ها أنا ذا قد ترديتُ إلى هذا الدَّرْك"، أي كأن العبد باعترافه بذنبه يُقرّ أنه بوقوعه في الذنب قد حقّر وأسفَّ بالمستوى الإنساني والمقامات الإنسانية الموهوبة له، واعترف بأنه أعرض عنها وتبنَّى البهيمية بإرادته، فتردى إلى هذه الدَّرَكَة.

(٦٢) صحيح البخاري، التوحيد، ٣٥؛ صحيح مسلم، التوبة، ٢٩. (واللفظ لمسلم)

وأما من ارتكب ذنبًا ولم يشعر به، فالحقيقة أنه مُنِيَ بالصفعة الواردة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٧٩/٧)، وصار أدنى من الحيوان رتبةً؛ ولهذا الحكم مثال بديع دلت عليه نتائج استطلاع رأي الشباب في أوروبا في السنوات الماضية، فلقد أظهر الاستطلاع أن سمات الشباب الأوروبي هي سمات كلب ضال في الشوراع؛ ولا غروَ فكلُّ طريقٍ غير طريق الحقيقة يؤدي إلى نتائج مجافية للحقيقة جِذْرِيًّا.

obeikandl.com

رسولنا والوفود الزائرة

سؤال: كان رسولنا ﷺ يُعنَى أيّما عناية باستقبال وفود بلاد وقبائل الحِوَار لا سيما بعد فتح مكة، وكان يرغِّبُ في أن يُقتدَى بسُنَّتِه هذه، وأن يُواظب عليها مَن بعدَه، وأكّد دعوته في وصاياه في آخر حياته؛ فما الحكمة؟ وما العبر والدروسُ المستفادة إذا ما أسقطنا هذا الأمر على واقعِنا اليوم؟

الجواب: إن عنايةَ رسولِنا ﷺ هذه سلوكٌ جليل، وعلينا أنْ نُعنَى بهذا الأمر أكثر فأكثر؛ لذا ينبغي الوقوفُ عنده حتمًا.

لقد استمرَّ اهتمامه وحفاوتُه تلك ﷺ على أعلى مستوى، لا بالوفود القادمة إليه شخصيًّا فحسب، بل بالأفراد القادمين لاعتناق الإسلام أيضًا؛ فمثلًا حظيت النخبة من أهل مكة مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم باهتمام رسول الله إبّان وصولها إلى المدينة، حتى إن أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما لم يحظيا بمثل ذلك يومئذٍ.

obeikandl.com

إذ قال رسولنا ﷺ لخالد ﷺ: "**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَلَّا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**"(٦٣)؛ وسرعان ما مدحه فلقَّبه: "سيف الله"(٦٤)...

وكم نال عمرو بن العاص ﷺ من المسلمين، حتى إنه لطالما كادَ الإسلامَ بدهائه، ولما اعتنق الإسلام، ووصل المدينة استقبله رسولنا ﷺ بحفاوة، ولم يذكّره حتى بأصغر أمر من سوابقه، ولما قال عمرو: "يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَغْفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي" قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يَا عَمْرُو، بَايِعْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ**"(٦٥).

وهذا جرير بن عبد الله البجلي: "دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَمْ يَرَ مَوْضِعًا، وَضَنَّ كُلُّ رَجُلٍ بِمَجْلِسِهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِ، فَتَلَقَّاهُ بِنَحْرِهِ وَوَجْهِهِ، فَقَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: أَكْرَمَكَ اللهُ كَمَا أَكْرَمْتَنِي، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا أَتَاهُ كَرِيمُ قَوْمٍ فَلْيُكْرِمْهُ**"(٦٦).

أما استقباله عكرمة بن أبي جهل ﷺ بكلمات مِلؤُها الحفاوة، فهي لوحةٌ ذات عبرةٍ متميزة جدًّا في هذا الموضوع.

(٦٣) الواقدي: **المغازي**، ٧٤٩/٢؛ البيهقي: **دلائل النبوة**، ٣٤٩/٤.

(٦٤) **صحيح البخاري**، فضائل الصحابة، ٢٥؛ **مسند الإمام أحمد**، ٢٤٦/٣٧، ٢٥٨.

(٦٥) **مسند الإمام أحمد**، ٣١٥/٢٩.

(٦٦) الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٣٢٤/٤؛ أبو نعيم: **حلية الأولياء**، ٢٠٥/٦.

أجـل، إن هـذه السُّـنَن من المبـادئ الثابتة عند رسـولنا ﷺ، وفي ضوئهـا كان يعامل الوفود والأفـراد القادمين دون فرق؛ وهي زاخرة بغايات كثيرة ملأى بالحكم:

أولًا: هـؤلاء القادمـون حديثًـا، ولـم تطمئن نفوسـهم للإسـلام تمامًا، كان يسـاورهم القلق والخوف من تغيير الدين، ولو لم يعثروا علـى منـاخ دافئ آمـنٍ يخلّص أنفسـهم من المخـاوف لربما اتجهوا وِجهة أخرى، وهي خسارة كبيرة لهم أنفسهم، إذًا إنّ عنايته وحفاوته العظيمة ﷺ بمن وفدوا يتنسمون عبير نسمة من الإيمان كانت حِصنًا لهـم من قـرارٍ خاطئ كـذاك، وهذا من الأمـور التي ينبغـي الوقوف عندها والعناية بها أيَّما عناية اليوم وغدًا.

ثانيًـا: كان فـي الوفـود القادمـة أنـاسٌ يحظـون عـادةً بالاحترام والتبجيـل فـي أقوامهم وقبائلهـم، إنهم أناس اعتـادوا على مثل هذا الاهتمـام وتلك العناية في مجتمعاتهم؛ فوجب أن يحظوا بمثل ذلك التقدير والعناية حتى لا يستوحشوا من المجتمـع الجديد الذي وفدوا إليه، أي من شـأن هـذه الحفاوة والعناية أن تشـعرهم بالألفة وترفـع عنهم كُرْبة الغربة.

ثالثًـا: كان معظـم تلك الوفود رسـميًّا، ولما صار الإسـلام دولةً كانـت القبائل والدول المجاورة ترسـل وفودها إلـى المدينة لتبحثَ الأمر بحسـب رؤيتها هي، ولم تكن تلك الوفود من عامّة النّاس؛ إذ كان لغالبِهم فلسفة حياةٍ وتقديرات خاصّة للأمور، ومن المسلَّم به أن

يرجعوا إلى قومهم بانطباعات خاصّة عن زيارتهم تلك، وكان لآرائهم الجديدة تأثيرٌ بيّن على بلادهم وقبائلهم؛ لذا كان من الضروريّ أن يتزوَّد هؤلاء برؤية إيجابية، وهي تأثُّرهم عن قربٍ بالاستقبال الحارّ والحفاوة بهم.

رابعًا: كان أهل الكتاب يعرفون أخلاق رسولنا ﷺ وشمائله؛ لأنها مذكورة في كتبهم، ومن الوفود مَن يأتي ليتقصّى حقيقة هذا الأمر، أمَّا رسولنا ﷺ فكان واثقًا من نفسه؛ فهو الرسول الذي بشَّرت به التوراة والإنجيل، ومن وسائل ترغيب المخاطب برسالته تقريبُه منه كي يشهد الأمرَ عن قرب.

أجل، كان رسول الله يُدنيهم منه، وكأنه يقرّبهم من رؤيةِ علامات النبوة وأماراتها، فكانت حاله وأطواره المباركة سدًّا تتحطّم وتتفتّت عنده الشكوكُ والظنونُ التي من شأنها أن تمزّقَ كل شيء، وإذا بأكثرية الوافدين يغيّرون أحكامهم المسبقة، ويستعدون للقيام بتبليغ الإسلام إذا ما عادوا إلى بلادهم.

ربط المسألة بواقع عصرنا:

علينا أن نقرّ أنه لا أحد ألبتة يستطيع أن يقوم بسلوك رسول الله ﷺ نفسه؛ فلا طاقة ولا قوة لأيِّ شخصٍ على فعل هذا، تدبّروا الأمر! لقد حمل رسالةَ القرآن الكريم، وهي كما جاء في القرآن حِمْل عظيم ثقيل تتصدع منه الجبال، لقد صمد صمودَ الرواسي،

فلـم تهـزّه أية حادثة ألبتة، ولم يُثْنِه أيّ تصرّفٍ يخالف مبادئه، إننا قد نمـلّ ونضجر، أمَّا هو ﷺ فيسـتحيل أن ترِدَ عليـه الخواطر في أنماطٍ من الضعف كهذه.

وعلـى هـذا فمن الصعب أن نطبّق ونتمثّل تمـام التطبيق والتمثل مودَّتَه وحفاوتَه ﷺ في استقباله الوفود، أو في تقبّله بعض الأشخاص، وتناسـيه عيوبهم السـابقة كلها تمامًا، ولكـن لا مناص من فعل ذلك بقـدر طاقتنـا، فالتقاعس عنه فيه حطٌّ من قدر هـذه الخدمة العالمية، وخيانة لهذه الغاية السامية.

وقـد عُنِـيَ الرسـول ﷺ في آخـر وصايـاه بنمط اسـتقبال الوفود والحفـاوةِ الواجبـة في هذا الأمر، وأشـار إلى تفاصيل هذه المسـألة وأبعادها المستقبلية، وهو أمر مهمّ جدًّا للمستقبل القريب والبعيد.

وهذا لأنَّ الرسالةَ لم تنتشر بعدُ خارج جزيرة العرب، وما رسائل بعـض الملـوك وهداياهـم إلا مودة وحفاوة شـخصية؛ وسـيأتي يوم تضيّـف "الدولة الإسـلامية" مئات بـل آلاف الوفـود لترامي أطرافها المنتشرة في أنحاء العالم كافّةً، وعليها أن تكرم وفادتهم، ورسول الله ﷺ هو مَنْ سنَّ الأصول والأساليب اللازمة للقيام بهذا الأمر الخاص بالمراسـم، والحقيقـة أنه ما من معضلة وقعت فـي عقدين ونيّف إلّا كان لها عنده حلّ، ومنها استقبال الوفود.

مسألة المساواة بين الرجل والمرأة

سؤال: كثرت الأقاويل في السنوات الأخيرة عن مسألة المساواة بين الرجل والمرأة، فماذا عنها في الإسلام ؟

الجواب: لنحدِّدْ أولًا معنى "المساواة" قبل بحث المسألة:

إذا أُطلقت كلمة المساواة فإنها تعني الوحدة في الطبيعة والصفة والقيمة والأبعاد، وعدمَ الاختلافِ في كل منها، وعدمَ التفريق في الحقوق مطلقًا.

تُرى ما هي مكانة المرأة للرجل في ضوء هذا التعريف؟

أ- اختلاف الفطرة:

من كلِّ شيء في الكون خلق الله زوجين، ولا يمكن الادعاء بأنَّ كلًّا منهما مساوٍ للآخر في كلّ شيء، ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سُورَةُ الذَّارِيَاتِ: ٤٩/٥١).

إنَّ كلَّ شيء من الذرات إلى النباتات، ومنها إلى الذكورة والأنوثة في الحيوانات والبشر أزواجٌ بعضُها يحتاجُ إلى بعض، فالموجب محتاج للسالب والإلكترون للبُروتون، والليل للنهار، والصيف للشتاء، والأرض للسماء، والرجل للمرأة، والمرأة للرجل؛

وثمّةَ كثير كثير من أزواج لا قِبَلَ لنا بمعرفتها الآن، وقد نعرف بعضها بتقدّم العلم والتقنية إن يسّر الله لنا.

وهكـذا خَلْقُ المـرأة، خلقها الله كما خلـق البروتون للإلكترون، والسـالب للموجب، والبذرة الأنثـى للبذرة الذكر، فتكوّنت من تلك الأزواج وحـدة واحـدة؛ وكمـا أن الإلكتـرون لا يسـاوي البروتون، والسـالب لا يسـاوي الموجـب؛ فالمـرأة أيضا لا يمكن أن تسـاوي الرجـل، وهـذا مـن قوانين الفطـرة التي لا تتغير؛ هذا وكل ما سـوى الله الأحـد قائـم بغيره، والقائمُ بغيرِهِ لا يسـتغني عـن الغيرِ في بقائه، فالرجل والمرأة ناقصان يجتمعان معًا؛ فيكملان بعضهما، ويشـكلان وحدة واحدة، وهذا هو الأصل في كل مخلوق.

فالرجلُ والمرأة ليسـا متساويين، بل هما متكاملان، وهي حقيقة عبَّر عنها رسول الله ﷺ بقوله: "**إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَال**"(٦٧).

وكلمة "شقائق" لغةً: جزء الكلِّ المقسوم نصفَيْن تمامًا، أي إنَّ كلَّ جـزءٍ من الجزأين اللذين يمثّلان الكل الواحد "شـقيقٌ" للآخر، وبناءً على هذا فإنَّ الرجل والمرأةَ نصفان متساويان من حيثُ الإنسانية، غير أنَّـه لا أحدَ فيهما عينُ الآخر ألبتة؛ أي إنّ فطرتيهما وبنيتهما الروحية والنفسـية متباينـة كلَّ التبايـن، ويسـتحيلُ أن تسـاويَ المـرأةُ الرجلَ أو الرجلُ المرأةَ نفسيًّا وجسديًّا؛ أمَّا بيولوجيًّا فالرجل ليس أكثر تطورًا مـن المرأة شـكلًا، والعكـس بالعكس، فعلـى كلِّ إنسـانٍ مؤمنًا كان

(٦٧) سنن الترمذي، الطهارة، ٨٢؛ سنن أبي داود، الطهارة، ٩٥؛ سنن ابن ماجه، المقدمة، ١١.

أم غير مؤمن أن يدعَ أوهامَ المساواة، ويرضى بواقع الرجل والمرأة كما هما، لأنه لا يدَ لأحدٍ من البشر في اختلاف النوع.

ناهيك أنَّه يمتنع القول بوجود مساواة كاملة، ليس بين الأجناس المختلفة فحسب، بل بين الأجناس المتشابهة أيضًا؛ والسعي لتحقيق أُمنيةٍ كهذه سعيٌ لتغيير قوانين الفطرة، وهذا النوعُ من الجهودِ هباء وعبثٌ محضٌ، وليس في اختلاف خِلْقةِ النِّساء هذه ما يقتضي استحقارهنَّ وازدراءهنَّ، بل العكس هو الصحيحُ، فالحقُّ تعالى يقول: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (سُورَةُ الأَعْلَى: ٣/٨٧)، وهو مَنْ خلق الرجل والمرأة "في أحسن تقويم"، وأرشدهما إلى سبل الرِّفعة والوصول إليه، وهو من جعل كلًّا منهما مكمِّلًا وحصنًا ولباسًا للآخَر.

ب- اختلاف الوظيفة:

بيّنا أنّه لا يمكن أن تساوي المرأة الرجل في الفطرة وكذلك في الوظيفة؛ فتكليف المرأة بوظائف الرجل ظلم بيّنٌ لها؛ لأنه اتضح وضوحًا لا سبيل لإنكاره أنّ المرأة جسديًّا وبيولوجيًّا ونفسيًّا تختلفُ كثيرًا جدًّا عن الرجل.

والاختلافُ في بعض الحقوق والواجبات الناجمة عن اختلافِ الفطرة أمرٌ مسلَّمٌ به، فالرجل مثلًا أقوى من المرأة وأقدر، وما أصعبَ أن تقومَ المرأة بما يمكن أن يقوم به الرجل في هذا! وهذا ليس نقصًا في المرأة ألبتة، والمرأة أكثر شفقةً ورحمةً وظرَفًا وعاطفةً، ولا يمكن للرجل أن يباريها في هذا، لقد زُوِّد كلٌّ منهما بِطاقات تقتضيها

وظائفـه، وتلك هي العدالة والنَّصَفة حقًّا حقًّا؛ فالصوابُ دراسـةُ كلٍّ مـن الرجل والمـرأة على حدة في ضوء فطرتهما، وتقييم أمرهما بناءً على ذلك، لا على أساس المساواة بينهما.

أجل، إنَّ للمرأةِ حقوقًا ووظائفَ معيّنةً تناسب خلقتها وقدراتها، وإذا عملـتْ فيما خُلقت له فالحصـول على نتائج أفضل وأجود أمر ممكن.

إن المـرأة هـي التي تلد الأجيـال وتربيها، وتقدِّم للبشـرية أفرادًا أخيارًا بيدها المباركة الفيّاضة، لا سـيما أنَّ الله زادَها إحسانًا، فمتَّعَها بالشـفقة لتربيـةِ الأجيال؛ فهـي بهذا صرحٌ جديـر بالتقدير والاحترام بيـن كل أفـراد العائلـة، فهي فـي بيتها المربِّيـة المعلمـة القيّمة منبع الطمأنينـة، يطمئن الرجل عندها، وينشـأ الطفل على صدرها الحاني وينمـو ويترعـرع حسَّاسًـا عاطفيًّا شـفيقًا سـليم الفكر، وإذا عاشـت عفيفةً تحصَّنَ الطفلُ في كنفِها بعيدًا عن التفسخ والانحلال، وعُصِم المجتمـعُ من التآكُل والاضمحلال.

أجـل، إن كلَّ الألطـاف التـي منحها بعـضُ الخلقِ للمرأة باسـم المسـاواة ليظلُّ شـاحبًا أمام الألطاف الإلهية التي وهبها الحق تعالى إياهـا، بـل كلُّ مـا سـتُمنحه مـن حقوقٍ وإحسـان بدعوى المسـاواة ستكون مضحكة تافهة كمن يعلِّق ميدالية نحاسية على عنق من تَزَيَّن بميداليات ذهبية من رأسه إلى أخمص قدميه.

أجـل، إنَّ الله ﷻ كَسَـا المـرأةَ ملابـسَ زينـة كتلـك، وكلُّ لباسٍ ستلبَسُه من بعد ما هو إلا كسَرْجٍ أو ثياب خيش.

لقـد أعطـى الله ﷻ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وبهـذا صانَهُ عن أن يكون طاغيًا أو هُزْأَةً، وكلُّ حقٍّ يُمْنَحه بعد هذا ظلمٌ وإجحافٌ.

وإذا كانـت المـرأة سـتضطلع بعمـل، فلا بُـدَّ أن يكـون ملائمًا لبنيتهـا الجسـديَّة والنفسـيَّة والرُّوحية، أمَّـا تكليفُها بمـا لا تطيق من أعمال وتوظيفُها في أعمالٍ تُخرِجها عن فطرتها فهو أمرٌ لا علاقة له بالمساواة ولا بالمنطق الإنساني، بل العكسُ هو الصحيح؛ إن عدوانًا كهذا فيه سلبٌ لكثيرٍ من حقوق المرأة.

وما أبدعَ تعبيرَ الحديثِ النبويِّ عن هذا الأمر وأعظمَ وَقْعَهُ:

"**بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ التَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ**"(٦٨).

والخلاصة أن لكلِّ شيء غايةً في الخلق، ولا بد من تكليف كلِّ مخلوقٍ فيما خُلِقَ وتأهَّل له، حتى تسودَ العدالة الحقيقية.

(٦٨) صحيح البخاري، الحرث، ٤؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ١٣؛ سنن الترمذي، المناقب، ١٦.

مصعب بن عمير رضي الله عنه

سؤال: ما خصائصُ شخصيَّةِ مصعبِ بن عمير رضي الله عنه؟

الجواب: لم يكن مصعب بن عمير رضي الله عنه أجلَّ الصحابة الكرام، ولا شك أنه أدى في حياته السَّنيّة رسالةً تَعدِلُ أعظم الصحابة، وفي هذا عبرة لنا لنتذكَّرَ أنَّ الله تعالى منَّ على الإسلام في فترات معيّنة بأناس كهؤلاء، أغلبُهم لا نظيرَ ولا ندّ له، ولو عاشوا في عصرِنا أو في أيّ عصرٍ آخر لما استطاعوا أن يؤدُّوا بتلك الطمأنينة ما أدَّوه من رسالات يومئذٍ، لقد كان مصعب بن عمير صحابيًّا عظيمًا جدًّا لا يقلُّ عمَّن حملوا رسالات تاريخية أمثال حمزة وعبد الله ابن جحش رضي الله عنهم.

أجل، لقد كان سيدنا مصعب بن عمير وحمزة وعبد الله ابن جحش رضي الله عنهم مثالَ البطولة والخلود في الصحابة الفضلاء؛ وهل كان هؤلاء فحسب؟ كلا ألبتة.

كان من البواسل الذين أرسَوا أسسًا يبني عليها مَنْ بعدَهم مِنَ الدّعاة إلى يوم القيامة، وبهذا كُتب له الخلود في صدورنا ومشاعرنا وفكرنا، فما ينبغي ونحن نبحث في حياة أمثال هؤلاء أنْ ننسى رسالاتهم التاريخية ألبتة.

هذا ولم تجد سهام الحرام إلى عينَي مصعبٍ سبيلًا، ولا عرف زيغ الجاهلية، أي إنه يوم أن تفشى الحرام في مكة حتى داخل البيت كان منجذبًا لمفخرة الإنسانية وجاذبيته القدسية، ويطوف حول نوره طواف الفراش حول النار، وما ألَمَّ بحرامٍ قطُّ، ليس هذا فحسب بل كم من مشاقّ وأزماتٍ وهمومٍ ومعاناةٍ كانت له رَصَدًا.

أجل، كان يمرّ بأكثر فترات مكة معاناةً ومحنةً وما كان يُعير سمعَه لتهديدات أمه ألبتة، ويسعى دَأَبًا ليحافِظَ على قربه من سيدنا محمد ﷺ، فسما به هذا القربُ إلى درجة التخلق بـ"الأخلاق العالية"، بل بلغ به قمة الإنسانية؛ فرسول الله ﷺ لما أُتِيَ به إليه كان لا يزال طينةً يسهل تشكيلها، فوضعه في قالب خاصّ، وشكّله كما أراد.

مصعب بن عمير رضي الله عنه هذا هو الرجل الكُفْءُ لمهمّةِ شرحِ المنهج القرآني الماسي على ضوء قاعدة "الظهور على المدنيين المثقفين إنما هو بالإقناع لا بالإجبار..."[٦٩]. أجل، إنه عندما انعدمت الحكمة واختل توازن القوى وسادت القوة الغاشمة وغابت حرية التعبير استطاع أن يتصرف بحِنكة وحِرفية أدّى بها مهمة التبليغ والإرشاد على أكمل وجه، وكأنه -إن جاز التعبير- قد بُرمج على هذا الأمر، لم يكن نموذج مصعب بالغَضوب الذي يرتفع ضغطه فجأةً وينهزم أمام مشاعره ليُطلق صرخات وصيحات، ويفرّ من الميدان إذا أعضلَ الأمر، بل العكس هو الواقع: إنَّه قوي الإرادة، يعرف كيف يُسَكِّنُ

(٦٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: سيرة ذاتية، الحياة الأولى، ص ١١٦.

الغضـوب دون أن يغير نهجه وسـلوكه وإن بُصق فـي وجهه، أي إنه كان إنسانًا كاملًا في التوازن والفكر والإرادة.

تـرك كل شـيء في مكـة فجأةً، وكان بوسـعه أن يعيش في رغد، فهو وحيد أبويه، ثم اختار بمحض إرادته سـبيلَ سـيد الأنبياء الشاقَّ، فـدلّ هـذا أنّ إرادتَـه هـذه هي أهمُّ خصائصـه، ما قـارَبَ خمرًا، ولا قارف امرأةً قطُّ، وكان يعرف كيف يساير أمه ويعاملها دون أن يكسر خاطرها أو يؤذيها رغم كلِّ ما كان منها، وكان يحرص على أن تكون صلته برسول الله ﷺ قويَّةً عميقةً حيويّةً دائمًا.

وهذه السلوكيّات كلّها تقتضي إرادةً كما تبيَّن، وقد نجح فيها ﷺ، كان فخـر الكائنـات ﷺ خبيرًا باختيار وتقييم من يـكل إليهم المهامّ، وهـذه خصّيصـة لا نلبث إلا أن نشـهد بين يديها أنّ "محمدًا رسـول الله"، وقد اختار رسول الله ﷺ مصعبًا لمهمة التبليـغ والإرشاد فأرسله إلـى المدينـة، اختيرَ مصعب وفـي القوم أبو بكر وعمـر وعليٌّ ﷺ، فاسـتنبتَ ﷺ الطمأنينة في القلوب بأسـلوبه الجادّ، ولم يسـاورْه أيُّ نوعٍ من الهلـعِ والذُّعْرِ في المدينة، وهكذا شـرُفَت بالإسـلام قاماتٌ سامقة مثل أسيد بن خضير وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ﷺ.

أجل، كان ﷺ داعيةً حقًّا، اطلـع على ما وراء الأشـياء، مسـتعدًّا للقاء الموت مستبشرًا به؛ وقد قضى حياته وختمها على هذا المنهـج، ولما استشهد يوم أحد لم يجدوا ما يكفنونه به ويغطّي جسده. أجل، لـم يجـدوا، فكُفِّنَ نصفه بمئزرٍ كان عليه، وسـائرُهُ بنبات الإذخر، ثم دُفِن.

مصعب بن عمير ﷺ صاحبُ هذه الحالة الرُّوحية لما قطعت يده اليمنى -وهو يقاتل عن رسول الله ﷺ- أخذ اللواء باليسرى، فقُطعت، فحنا عليه بعضديه، ومضى يقارع سيوفًا أشهرت حقدها وبغضها في وجه رسولنا حتى سقط شهيدًا[٧٠]، وواضحٌ من هذا أن حياته تدور في فلك الإرادة دائمًا، وتذعن للمشيئة الإلهيّة، إنها حياة اكتنفها الشعور القائل: "أنعم الله عليّ بهذه الإرادة، فلا بد أن أناضل من أجلها في حياتي كلِّها".

وحمادى القول أنَّ مصعبًا -الذي من معاني اسمه الصعوبة والمشقّة والعقبة المنيعة- قد استطاع بفضل الله تعالى أن يجتاز كلَّ عقبة وعائق عرَضَ له، وانتقل إلى رحمة الرحمن الرحيم، وتوّجَ نضاله برتبة الشهادة التي لطالما حَلَمَ بها كثيرون يومئذٍ.

(٧٠) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ١٢١/٣؛ ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣٤٧/٦٠.

obeikandl.com

نبذة عن الشيطان

سؤال: هلّا تبصروننا بماهية الشيطان، وعمله، وطرق إغوائه، وسبل الوقاية منها، والحكمة من خلقه؟

الجواب:

١- اشتقاق كلمة شيطان:

الشيطان مخلوق مطرودٌ من رحمة الله، واشتقاقها من جذرين الأول "شَطَنَ": بعُدَ عن الله وعن رحمته، والثاني "شَاطَ-يَشِيطُ": احترق وهلك، وأشاطه: أذهبه، وكلاهما صحيح في الشيطان، لأنه مخلوق طُرِدَ من رحمة الله؛ فاستحقَّ الحرقَ والإبعادَ.

٢- هل يمكن إطلاق كلمة "شيطان" على غيره؟

يمكن شرعًا إطلاق كلمة "شيطان" بمعناها المذكور على كل طاغٍ باغٍ، وقد سمَّى الله ﷻ من يُغوي الناس من الجنِّ والإنس بزخرف القول شيطانًا: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ١١٢/٦).

obeikandl.com

وقد أطلق سيدُنا حمزةﷺ لفظَ شيطان على حصان جامح أُركِبه، فقال: "أركبتموني على شيطان"، وسمى رسولنا ﷺ الكلب الأسود شيطانًا(٧١)، والبعير النادّ شيطانًا(٧٢).

يُستنبط من هذا أن كلَّ متمرِّد جامحٍ إنسًا كان أم جنًّا أم حيوانًا يمكن أن يطلق عليه -بمعنى ما- لفظ "شيطان"، أمَّا الشيطان موضوع السؤال فهو إبليس الذي ابتُلِيَ به البشر، وأبى أن يسجد لسيدنا آدم عليه السلام، وكفر بتمرّده على الله تعالى، وصار عدوًّا أبديًّا لكل البشر.

٣- لماذا طُرد الشيطان من رحمة الله تعالى؟

إنما طُرِد الشيطان من رحمة الله لإساءته توجيهَ قدراته ومشاعره الجِبلّيّة.

لقد خلق الله الإنسانَ مظهرًا "لأحسن تقويم" بما أُودِعَ فيه ماديًّا ومعنويًّا، وبيَّنَ سبحانه هذه الحقيقة بقوله: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (سُورَةُ التِّينِ: ٤/٩٥)، وماهية الإنسان حقًّا كالتقويم، تجتمع فيها الحقائق الخاصة بجميع المخلوقات، وتحتوي على جوهر كلِّ شيء؛ فالإنسانُ تقويمٌ يدلّ على الكون كلِّه، وهو في روعة فهرست فيه كلُّ ما كان خلال سنين وقرون، زِدْ على ذلك أن ماهيته غنيّة بمشاعر متنوعة مثل السرّ والخفي والأخفى والقلب، وهو كمال الباطن ومرآةُ الظاهر.

(٧١) **سنن أبي داود**، الصلاة، ١٠٩؛ **سنن ابن ماجه**، إقامة الصلوات، ٣٨؛ **مسند الإمام أحمد**، ٢٥٠/٣٥.

(٧٢) **سنن أبي داود**، الصلاة، ٢٥؛ **سنن ابن ماجه**، المساجد، ١٢؛ **مسند الإمام أحمد**، ٢٧/٢٢.

هكذا خلق الله البشر جميعًا غير أن منهم من ترقَّتْ لطائفُهُ كسيدنا رسول الله ﷺ ففاقَ جبريل، ومنهم من وجَّهَ ملكاته توجيهًا سلبيًّا مثل أبي جهل؛ فتردَّى في دَرْكة تُخزي الشيطان نفسَه.

وهكذا طُرِدَ الشيطان وأُبعد عن رحمة الله عندما أساء استخدام طاقاته، تأملوا هذا المعنى؛ فهو لم يخلق بعيدًا عن رحمة الله، وإنما أُبعد عنها بعد ذلك عندما أساء استخدام طاقاته.

٤- من أي المعابِر يتسلل الشيطان إلى الإنسان؟

نستهلّ حديثنا عن سبب عداوة الشيطان للإنسان، ثم نستنتج مما جاء في الآية الكريمة على لسان الشيطان نفسِه أضرُبَ حِيَلِه لإغواء الإنسان.

وصارت للشيطان جِبِلَّة أخرى بسخطه على الله وحقده وغيظه وكرهه لبني البشر بعد أن نال هذه الصفعة: ﴿**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ١٥/٣٤). أجل، إنَّه طُرِدَ من الرحمة الإلهية لأنّه أبى أن يسجد لآدم عليه السلام، ولما طردَه الله أظهر عداوته له سبحانه.

أجل، إنّ امتحانَه بآدم عليه السلام ورسوبه فيه أثَّر فيه كثيرًا، فأقسم قائلًا: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ١٥/٣٩-٤٠)، أي بسبب تلك الأحداث طفح قلبه حقدًا على بني آدم جميعًا في شخص آدم عليه السلام، وأي قلبٍ يطفح حقدًا لن يكون فيه شيء من التوازن قطعًا، وهكذا الشيطان كان، لقد

عبَّـر عن غيظه وحقده كما جاء في القـرآن الكريم: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْـتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِـنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٦-١٧).

أي لآتينَّهم من أَمامِهم بأن أرسمَ لهم مستقبلًا كلُّه جحودٌ وظلام حتـى يقولـوا: "لا بعـث بعد المـوت، ولا جنّة ولا نـار..."، وأحطّم آمالهم حتى يقولوا دائمًا: "اليوم أسـوأ من الأمس"، وأوسـوس لهم بأنه كُتب عليهم أنهم أسـرى للكفار إلى يوم القيامة، ولا أزال أُشـيع الظلمات أمامهم.

ولآتينهم من خلفهم بأن أحول بينهم وبين تراثهم المقدّس الذي بـه يثقون، وأصوره لهم أنه مَزَارٌ موهوم، لأحطِّم آمالهم كلها وأهيّج مشاعر اليأس والقنوط لديهم.

ولآتينَّهـم عـن أيمانهـم قائـلًا: "أنتم أهـل الحـق والحقيقة، فلم تَدَعُـوْنَ الآخريـن يخدُمون الدين؟ هـلا تقومون أنتم بها؟"؛ فأُشـعِل الحسـد فيهـم، وأَعُـوقُ خدماتهم، وسـأحملهم علـى الحديث عما فعلوه، وأغرقهم في الرياء وإن أدّوا عباداتهم ظاهرًا.

ولآتينهـم عن شـمالهم بـأن ألطِّـخ أذهانهم بفلسـفات مضطربة منحرفـة، وأفكار يسـارية، وأنفث فـي أرواحهم أمـورًا خاطئةً دائمًا؛ فإذا أكثرهم جاحدون ولك لا يشكرون.

أجـل، كم وكم ذكَّـر القرآن الكريم بعجرفة الشـيطان هذه بحقد وبغضٍ بين يدي الحقِّ تعالى.

٥- لماذا لا يهتدي الشيطان؟

وإليكم مثالًا أو مثالين لنتبيّن لِمَ لا يهتدِي الشيطان: هبْ أنّ امرءًا أسلَمَ قلبه للحقد والكره لأسباب شتَّى، وفي حالةٍ ولحظةٍ كهذه تراه يعتدي على ما تحت يده، ويطوّحُ بكل ما تصل إليه، ولا يتورّع عن فعل ما بوسعه حتى يتغلب على الآخرين؛ لأنه لا اتزان عنده، ولا محاسبةَ للنفس، ولا تفكيرَ سليمًا، أي إن اختلال التوازن هو مِقود ساعات هذا الإنسان ودقائقه ولحظاته وثوانيه، بل إنه أحاط بروحه، حتى غدت له جِبلّةً أخرى، فراح يفعل ما تقتضيه، وهذا الضرب من التصرفات ضرورة تفرضها جِبلّته عندئذ.

مثال آخر: لو أنَّ امرءًا غشيت قلبَه وكل مشاعره ظلماتُ الكفر، فلا ريب أن الشبهات والشكوك القسريّة ستهزه هزَّ الرياح النَّافِجة، فالشبهات الشيطانيّة في الله ﷻ أو رسوله ﷺ تغزو عالمه الفكري، وتزجُّ به في أودية الشكّ والشبهات.

فإن فرَّ إلى الله عندئذٍ، وسلك طريقًا يباعد بينه وبين تلك الشبهات، برِئ منها بعناية الله، أمَّا إن استمر ذلك الحال فقد يهمّ بالانتحار وتغلبه الهموم، وتلك هي حال الكافرين في الواقع، أي إن هذا الضرب من الأزمات والهموم لا يدعه ولو ساعة بل يطارده دائماً؛ ذلك أنَّ الكفر لا يبرحه.

وبهذين المثالين يتبين لنا لِمَ عصى الشيطان: فمثل الشيطان في الأول مثل من أجهزَ طوعًا على كل مَلَكةٍ في جوهره المهيّإِ للخير

والجمال، وأظهر كل ملكاته الشريرة، حتى طفَحَ صدره بالكفر وما بقي للإيمان مكانٌ؛ فقد أحاط الشر بحياته كلها ثوانيها وهنيهاتها إحاطةَ السوار بالمعصم، فمثله مثل ذلك الغضوب الذي يمتلئ حقدًا وكرهًا في كل آنٍ من حياته.

ذلكم هو الشيطان، لقد صار الجحود جبلَّة وركنًا في سجيته؛ فالأملُ في هدايته وبذل الجهد لإقناعه بما يُبيَّنُ له إن هو إلا كالرّقْم على الماء، لا سيما أنّه يعادي كلّ من آمن بالله حقدًا وبغضًا...

ولو أنه سلك طريق الرجل الثاني بأن فرّ إلى الله تعالى، واجتهد في الخروج من المأزق الذي زلَّ فيه، لنجا منه بعناية الله واهتدى.

٦- ما حكمة خلق الشيطان؟

كُتبت في هذا كتب منها رسالة الإمام بديع الزمان، فهي جديرة بالقراءة(٧٣)، فحسبنا الإشارة إلى هذا بكلمات:

إن الله ﷻ منزَّهٌ مبرّأ عن العبث في أفعالِه، فهو حكيم له ألفُ حكمةٍ وحكمةٌ في الخلق، ومن الجهل به وعدم المعرفة تخيلُ العبث منه، فهذا تخيلٌ ممتنع ولو لم ندرك تلك الحِكم.

بعد ذكر هذه القاعدة التي هي أصلٌ راسخ في عقيدتنا نقول: إنَّ خلق الشيطان وتسليطه على الناس يحملهم على الحذَر، وقد حملهم؛ ولهذا سوف يفعّل الإنسانُ آلية اتقائه الشيطان والوقاية

(٧٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة الثالثة عشرة، ص ٩٨-١٢٣؛ **المكتوبات**، المكتوب الثاني عشر، السؤال الثاني ص ٥٣.

منه، فصار تسلط الشيطان محرّكًا لعملِ آليّة الوقاية هذه على نحو أفضل، فالعقارب والثعابين السامة في الحقول تحمل العاملين فيها على اليقظة والحذَر، وتكشف قدراتهم في التنبه، والصقر لما سُلِّط على العصفور نمت مهارات العصفور؛ وهكذا تسلط الشيطان على الإنسان؛ لقد نمت بهذا مهارات الإنسان وقدراته على الهرب من الشيطان والتخلص منه ونقضِ حيله كلّها، بل غدا وسيلةً للجوء الناس إلى الله، وإلى قلعة السنة السنية، وأشار القرآن الكريم إلى هذا مرارًا، من ذلك قوله: ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/٢٠٠) وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى منه قال: ﴿**وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ**﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٩٧-٩٨).

٧- كيف نتقي تسلط الشيطان علينا؟

أ. الاعتصام بالله

إن الاعتصام بالله، والاستعاذة به هي -كما قدّمنا في الآيات الكريمة- أعظم حصنٍ وآلية للوقاية من إغواء الشيطان وتهييجه، وهذه الآلية شرط في كل الأحوال، وفي الحديث الشريف: "**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**"(٧٤)، فنسأله سبحانه أن يوفقنا للتحقق بسر هذا الحديث لنسجد له داعين: "اللهم إني أعوذ بك منك، أعوذ برحمتك ومرحمتك من جبروتك وجلالك، وأعوذ بك من الشيطان".

(٧٤) انظر: صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٨؛ سنن النسائي، التطبيق، ٧٨.

ب. ترك التكاسل

يَهْجُمُ الشيطان غالبًا على الكسالى الخاملين، ويراود العاطلين القابعين كالمساكين خاصةً من لا يقدِّمون لدينهم أيَّ شيءٍ إيجابيّ، لذا لزِم بحث الخمول أو السلبية في مسألة التحصُّن من الشيطان، أي ما دام الشيطانُ يستثمر خمولنا غالبًا فلا ريب أنه يتحيّن فُرَصَ فراغنا، فيُلقي فينا خيالاتٍ وأوهامًا غريبة عنّا، لنفكِّر في الخبائث ونقرأ عنها، لذا يجب علينا أن نملأَ بالفكر والعمل كلَّ فراغ يلج منه ويعبث فيه، ولنملأ شعورنا وأفكارنا بالله تعالى، بل ينبغي أن نطالع الآيات الكونية دائمًا، ونُشغَل برابطة الموت لنمتلئ خوفًا وخشية، وبتبليغِ دين ربّنا لمن حولنا؛ لئلا ينفذ الشيطان إلى قلوبنا فيوسوس لنا ويزعزع إيماننا.

هذا مع المداومة على الأذكار والأوراد، ولو أنَّا جعلنا حياتنا زاخرة بخدمة دينه تعالى، لما تركَنا ربُّنا للشياطين ببركة ما سنفعله، ولَبلغ بنا برّ الأمان في ظل هذه الأعمال المباركة.

ج. الوفاء بالعهد

إن الوفاء بالعهد لا يقلّ أهمية عما ذكرنا من أمورٍ نتقي بها إغواء الشيطان. أجل، فمن وفَّى بعهده، ونصر دين الله فلن يسلمه سبحانه للشياطين والضلال، ألم يقل الله تعالى: ﴿**أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٤٠)؟

أجـل، طالما استمسـك العبد بهذه الرؤية وهـذا الاعتقاد، وطبَّقَه فعلًا، فسـيكفيه الله بلا ريب تسـلّط الشـيطان بأن يذكّـره بآية أو يريه برهانًـا، ويرفـع الغشـاوة عن بصـره، ويحفظه حقًّا، ومـا أكثر الأمثلة علـى هذا في حياة الصحابة والأصفياء والأولياء، وكلّها تكشـف أن برهانَ الله قد تجلَّى لهم حينما تاهت عقولهم وغُشِي على أبصارهم، فهداهم سـبحانه فورًا إلى الاسـتقامة، ومن يدري كم وكم أنقذَنا من التردي والتعثّر عدمُ إصرارنا على اسـتخدامنا إرادتنا استخدامًا سيئًا، وحظينا بنعم ربنا تلك.

إن من وفَّى وأخلص له تعالى يحظى بوفائه وعنايته بمقتضى الآية الكريمة: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُـمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (سُورَةُ مُحَمَّدٍ: ٧/٤٧)، بل منْ قصدوه بإرادتهم المحدودة حظوا بنعمه التي لا تُحَـدّ، وهنا ينبغـي علينا -نحن رجال الدعوة المباركة- أن نمضي في هذا السبيل الذي ينتهي بنا إلى جمال الله وجنته، وألَّا نتخلى ولو هنيهة عن الوفاء بالعهد، وألا ننسى ولو لحظةً أننا تحت مراقبة ذلك الرقيب المهيمن، إيمانًا منَّا بأنه سبحانه معنا مطلع علينا أنى وحيثما كنّا، فلنراقب أنفسنا هكذا، ولنسيطر على جوانيتنا دائمًا.

د. تجنب الوحدة

تجنّـبُ الوحـدة أمضـى سـلاحٍ للتحصُّن مـن إضلال الشـيطان وإغوائـه، ولا بُدَّ من إشـهاره دائمًا على أيَّة حـال، وأقلّ ما يتحقق به ثلاثـة أصدقـاء فأكثر كما جـاء عن رسـول الله ﷺ(٧٥)؛ أي إننا بصحبةِ

(٧٥) سنن الترمذي، الجهاد، ٤؛ سنن أبي داود، الجهاد، ٨٦.

أهل سـوقِنا وبيتنا وحياتنا كلِّها ممن يشـعر ويحس مثلنا ويؤمن مثلنا لَنَتعالى عن أن نكون لعبةً بيدِ الشَّيطانِ.

أجـل، إنَّ الخواطر السَّـيئة كالبـذرة المدفونة فينـا، تنمو يومًا إثر يوم، وتتكشف برعمًا، فما أجمل أن تُقطع هذه الخاطرة السيئة وهي برعم وتُلقى بعيدًا! وإلا نمت وكبِرت وتفاقمت، فهدمت بنيانها الذي سـمقت فيه، فلنستأصل منذ البداية صغار البذور التي نثرها الشيطان فـي أرواحنـا، وإلا فربما يطـول الزمن، فتغدو أمرًا يسـتحيل التغلب عليه، فتخلّ بتوازننا ومنطقنا بل بمخيّلتنا، وتكاد تتعذّر النجاة عندئذ.

لذا ينبغي تجنبُ الوحدة فعلًا حقًّا لئلا تتجذر مثل تلك الخواطر الخبيثة في بنيتنا، ثم تتغوَّل فتأسرنا. أجل، إنَّ عزيمتنا ورُقيَّنا الروحيّ وحياتنـا القلبيـة ربمـا لا تكفـي لتحصيننـا؛ إذ إن صلتنا بالله ليسـت كمـا ينبغي، وكذا اختلال صلتنا بالآخـرة نتيجةَ الفوضى الاجتماعية القائمة.

نعـم، لنـا أصدقاء تنطق وجوههم بالحقيقة، وتتجلى إرادة الله في إرادتهم، إنْ نأتهم ونشاركهم المناخ والبيئة نفسها فقد نكتسب منهم قـوةً مـن يجالس وليًّـا؛ فكلماتهم وأحاديثهـم تبدو نـارًا تُذيب صَلْدَ المشـاعر والخواطر الخبيثة فينا، وأحيانًـا ما نكون نحن أيضًا هكذا، فيأتوننا، فيستفيدون هم منا.

أجل، إنّ الله ﷻ خلق الإنسان اجتماعيًّا بفطرته، وهو ذو حاجات مادية ومعنوية تقتضي أن يعيش في مجتمـع على هذه الشاكلة، فعلينا

ألا نفارق جماعة على هذا النحو، وألا نعتزل الأصدقاء الخيرين الطيبين الأبرار.

هـ. استماع الوعظ والنصائح

الإنسان كائن يحتاج إلى أن يخفق قلبه يوميًّا، وتدمع عيناه، ويجدِّد جوّانيته بضع مرات، وقد عظَّم القرآن شأن من يتصلون بربهم، ويخرون للأذقان سجّدًا من شدة خشيتهم إياه، وقد تبلغ بنا المواعظ والنصائح أحيانًا هذا الأفق، ومن المؤسف أننا عامةً جيل منكوب محروم من الاستماع إلى هذه النوع من الوعاظ والمرشدين الدالين على الخير، ليت لدينا مئات وآلافًا من الوعاظ الذين يَحْدُون قلوبنا، فيبلغون بنا حالة العشق والشوق.

أجل، ليت عندنا آلافًا من الوعاظ الذين تغصّ حناجرهم بكلماتهم من البكاء، فلا يُفهم ما يقولون على المنابر كما كان حال فخر الدين الرازي! ليت هذا يحدث، وإن لم نفهم شيئًا على الإطلاق، فحسبنا الاتعاظ بحالهم، ليت عندنا مئات وآلافًا من المرشدين يروون لنا حياة الصحابة والتابعين وتابعيهم ويُضفون عليها روحًا من روحهم، فنستمع إليهم، ونُغضي حياءً من إنسانيتنا، ليتنا نشعر بالحاجة إلى التفتيش في حياتنا ونمطِها، وننظم أنفسنا.

وعندئذ قد ترقُّ قلوبنا، وتزول الأصداء التي تشوّشها، وتحيطنا التجليات الإلهية التي تنعكس على أرواحنا؛ فنبعد بهذا عن الوساوس والدسائس الشيطانية كافَّةً.

وأعيذك أن تقول: "أعلم هذا فلن أقرأه مرةً أخرى، لقد سمعت هذا من قبل، ولا حاجة لأن أسمعه مرة أخرى!"، إن لحياتنا المعنوية وقلبنا وروحنا وضميرنا ومشاعرِنا كلِّها حاجاتها كما نحتاج إلى الطعام والشراب، وهي حاجات متكررة، فوجب أن نقف بباب مرشد ونلوذ به، ونلج مناخ ولي الله هذا الذي يذيب كل شرٍّ، ويحول دون نفوذ الشيطان إلى نفوسنا، فلنجدّد أنفسنا دائمًا.

٨- ما الأدعية الواقية من شر الشيطان؟

لو أننا أطلقنا على الأمور التي تحدثنا عنها "أدعية فعلية" في هذا الشأن، فثمّة أدعية قولية تردفها، وكلاهما كالوجهين لشيءٍ واحد، إذ إن فعل أحدهما وإهمال الآخر أو تركه ربما يمنع تحقّق النتيجة المستهدفة.

إذًا ينبغي أن نحافظ على الأدعية القولية حيثما وأينما كنّا، ولا نهملها.

وإذا ذكر الدعاء القولي فمن البدهي أن تتبادر إلى الذهن أدعية رسول الله ﷺ، فكم من مناسبةٍ لا تُحصى في مقالة سردًا وشرحًا قد استعاذ فيها سيدنا رسول الله ﷺ من الشيطان: عند الطعام ودخول الخلاء والجماع... إلخ، وعليكَ بكتبٍ ومجلاتٍ جمعت أدعية في هذا الموضوع وغيره، وإليك نموذجًا من دعاء علّمَناه رسول الله ﷺ عند الخوف من الشيطان.

علمنا رسول الله ﷺ هذا الدعاء للتحصن من الشيطان: "**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَبَرَأَ وَذَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمٰنُ**"(٧٦).

اللهم تولَّ أجيال القرن العشرين التَّعِسَة البائسة، الشاردة عن طريق مسجدها ومنبرها ومحرابها، التي تتيه في أودية الكفر والضلال، وكلّما تاهت غرقت، والتي تحتاج إلى الهداية والإرشاد بقدر تيهها وغرقها، اللهمّ فاحفظها من شرّ شياطين الإنس والجنّ وأعوانهم، اللهمّ آمين...

(٧٦) **مسند الإمام أحمد**، ٢٠٢/٢٤؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٨٠/٦.

obeikandl.com

تغييرُ المنكر

سؤال: كيف نفهم الحديثَ الشريف: "مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"؟(٧٧).

الجواب: هذا الحديث أخرجه مسلم وأصحاب السنن، ومعناه أن على من رأى أمرًا ينكره الدين أن يغيّره بيده؛ فإن لم يستطع تغييره بيده، بأن لم يكن قادرًا على الدخول في الأمر فعلًا، فليغيّرْه بلسانه أي بالقول اللين والنقاش الحسن والمجادلة الحسنة والوعظ والنصيحة، فإن لم تُتح له الإمكانيات والمناخ لتغييره بلسانه أيضًا، فعليه أن يبغضه بقلبه، وهذا أضعف مراتب الإيمان.

إننا مُنينا بجرثومة تقرض حياتنا الاجتماعية، جرثومةٍ تقوّض بنيان المجتمع رويدًا رويدًا كالزنا والمخدرات والربا والاحتكار، وإنّ أعداءَ الأمَّة وحبائلَ الشرّ لَتُعْنَى بإحياء هذه الأمراض، وتعلمون وتشهدون يقينًا كيف تُزلزل هذه العللُ المجتمعَ وتقصمُ ظهرَه، ومن المستحيل تغيير هذا بيد الفرد، فتعيّن على أصحاب المسؤوليات أن يغيّروه باللسان، أي بالموعظة الحسنة، وذلك بأن يبيّنوا أنَّ الربا

(٧٧) صحيح مسلم، الإيمان، ٧٨؛ سنن الترمذي، الفتن، ١١؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٢٣٩.

جرثومةٌ تقرض الحياة الاجتماعية، وأن الزنا سرطان وغرغرينا، فيثير اشمئزاز الناس منه ويبغضهم فيه ويخوّفَهم منه ويصرفهم عنه، وذلك بالكلمة الطيبة والقول اللين ومنهجِ التبليغ المستفاد من مقاصد القرآن الكريم.

أجل، كانت للحكام كلمتهم في هذه الأمور يوم ساد الإسلام، وقام الجيش وقوات الأمن بمهمتهم أيضًا، وحالوا دون انتشار ذلك المنكر في حياتنا الاجتماعية، وهذا من ضروب التغيير باليد، وهذا الضرب من التدخل لتغيير المنكرات لا نراه في يومنا هذا، كما لا يُرَغَّب في الأمور الحسنة والفضائل كما ينبغي، ولو أنك اليوم منعت شارب الخمر في السوق لوجدته يلطمك، فتغيير المنكر باليد له زمانه ومكانه.

أما تغييره باللسان؛ فإذا كانت الدولة لا تقوم بمسؤوليتها ووظيفتها هذه، أي لا تقوم بمهمة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فلا تأمر بما أمر الله، ولا تحظر ما حرم الله، بل تفتح أبوابها لجميع الأمراض التي تنقرضُ بها الحياة الاجتماعية، فمثلًا يُرتكب الزنا تحت قانون ونظام معين، وكذا الخمر والربا... تُرتكب هذه الموبقات ولا تستطيعُ تغييرها بيدك، فواجبك أن تغيّرها بلسانك.

والحمد لله كثيرًا أن لنا اليوم أن نتحدث ونبيّنَ هذه الأمور، بينما هناك فترات وبلاد يتعذر الحديث فيها عن هذا في العالم الإسلامي وخارجه أيضًا؛ ففي هذه الحالة يجب علينا قطع صلتنا بمن يرتكبون تلك الموبقات إلا للإرشاد والتبليغ، والشعورُ بلوعة الأسى عليهم

لِزامًا، وهذا أقل الواجب، أمَّا مجالسة مرتكب المنكرات واستحسان سيئاته -عافانا الله- فهو انحطاطٌ وسقوط، ومثلُهُ استحسانُ مَنْ يرتكب موبقة الزنا ويضعف أمام شهوته؛ وبهذا قد يعُمّ العذاب الإلهي الخلقَ عامَّةً.

وهنا أستميحكم عذرًا في أمر آخر: قد يرتكب مجتمعٌ مفاسد شتى؛ ولو أنّ فيه وعيًا جماعيًّا فعّالًا مرِنًا سريع الحركة يدفع تلك المفاسد ويقضي عليها لارتدَّت تلك المصائبُ بهذا الفكر وهذه الحركية اللذَين هما بمثابة مانع الصواعق فينجو المجتمع، هذا وقد تحلّ بنا المصائب والبلايا ولَا تردُّها الموانع إن لم يكن ثمة وعيٌ جماعيٌّ نشِطٌ على ذاك النحو يقاومُ مساوئَ المجتمع، أو مرشدون مناضلون يتصدّون لهذه المفاسد كأنَّهم رجال إطفاءٍ يكافحون الحرائق.

لذا يتعذَّر على المؤمن أن يُجالس مرتكبي المنكرات جهرًا، أو يتواصلَ ويلتقي معهم من أجل علاقاتٍ شخصيّة، والواقع أن المؤمن يمكنه أن يتواصل مع الجميع بدرجةٍ ما، بل مع مرتكب الموبقات أيضًا بنيّة تعريفه بمحاسن الإسلام، وإنقاذه من السَّفه المنغمس فيه، على أن يكون هذا كله لوجه الله ليس إلّا، وبهذه النية يغدو تواصُلنا مع هذا المسيء عبادةً.

نعم، إنَّ بغضَ القلب لمرتكبي المعاصي هو أضعف الإيمان. أجل، سنبغض من لا يحبون الله ويحقرون نظام الكون الإلهي، ولهذا البغض شرط: أن يدفع صاحبه إلى إزالة تلك المساوئ

عن أصحابها؛ يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ**"(٧٨)، أي كما أمرني الله تعالى بالفرائض أمرني بإدارة البشر بحكمةٍ وإحكام.

أجل، يجب أن نحدِّثَ ذلك الإنسان بالكلمة الطيبة لا بغلظةٍ وفظاظةٍ، لا بدَّ أن نُدني منه حقنةً مليئة بالنور بلطفٍ وإحسان حتى يمكن علاجه بها، وكي لا تُقابل مقترحاتنا وأفكارنا بردّ فعلٍ عكسيّ؛ من أجل ذلك أمر الحقُّ تعالى سيدَنا موسى وهارون عليهما السلام بقوله: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٢٠/٤٤)، أي حاوِرا فرعون، وحدِّثاه عن الحق والحقيقة دون أن تُقَطِّبا وجهكما... حدّثاه حتى يكون للتبليغ معنًى، وكي لا تذهب الجهودُ المبذولة في هذا السبيل سدًى...

مجمل القول: تحدثْ وقابلْ مَن تحدثه وتلتقي به من أجل الله فحسب؛ وتحمّل كل شيء في سبيل الدلالة على الله وتبليغ أوامره، وواجِه كلَّ شيء، وأَبْغِضْ من تبغضُه من أجله تعالى فحسب.

(٧٨) البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢٢/١١؛ الديلمي: **مسند الفردوس**، ١٧٦/١ (واللفظ للديلمي).

الإرادة والامتحان

سؤال: كيف ينبغي أن نفهم مسألة "الامتحان بالإرادة"؟

الجواب: إنَّ عالم الخلق هو ميدان البحث في مسائل كيان الإنسان الماديّ والجسماني مثل ملامح الوجه والتركيب البنيوي والأحياء، وعالم الأمر هو ميدان البحث في الأمور الروحية والمعنوية مثل الأصول الأربعة: الإرادة واللطيفة الربانية والوعي والشعور، وكذا السرّ والخفيّ والأخفى، فكلٌّ منها بعدٌ مهمّ من أبعاد اللطيفة الربانية.

مَعالِمُ عالم الأمرِ هذه لها صلة مباشرة بالروح؛ وبشائر دنيوية وأخرويّة لأرباب "السير والسلوك"، وطبعيٌّ أن تكون لمن يُكرَم بأمورٍ كهذه غايةٌ خالدة مُستهدفة، يكِدُّ في حياته كلِّها ليبلغَها.

وينبغي ألا يُنسى أبدًا أنَّ قدرةَ الإنسان على بلوغ هذه الغاية رهنٌ بكونه "إنسانًا كاملًا"، وأيًّا كانت هذه الغاية، أهي إشباع الشهوات الجسدية، أم التنعم بالجنة، أم رؤية جمال الله تعالى، لَن يتحقّق منها شيء إلا بتفعيل المشاعر والاستعدادات والطاقات الموهوبة له، ويشترطُ لتحقق هذا كثرة العمل والتدريبات؛ وبذلك يمكن أن يشعر الإنسان ويتمتع ويتلقى الواردات أي أن يكون "الإنسان الكامل" الذي تحدَّثَ عنه "عبدُ الكريم الجيلي" في كتابه المسمَّى بهذا الاسم.

أجل، إن الإيمان بالله هو أسمى غايةٍ للخلق وأعظمُ ثمار الفطرة الإنسانية، وتنبع عنه معرفةُ الله ثم محبتُه جل شأنه، فالذوقُ الروحاني، ثم ذروةُ هذا الذوق الروحاني وهو العشقُ، وأثره في روح العبد "الشوقُ" و"الوجدُ" وهو: الغياب عن شهود الذات، و"التواجدُ" أحيانًا لبلوغ الوجد، و"المواجدُ" وهي: أضعاف الوجد، و"الجذبُ": وله طريق ومدخل آخر مغاير لهذه الأحوال، و"الانجذابُ" حيث لا تبقى إرادة، وآخِر الانجذاب ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ٩٩/١٥)... أجل، قد يصل الإنسان بهذه الأمور كلها إلى مستوى الإنسان الكامل غايةِ الخلق وثمرةِ الفطرة.

أما الإرادة فهي كما بيّنا من الأصول الأربعة للضمير في عالم الأمر، فهي كما عبّر عنها الإمام بديع الزمان بأسلوبه الأنفسِ السهل الممتنع: "الميلان أو التصرف في الميلان"(٧٩). أجل، إن هذه الحقيقة التي عبر عنها الأستاذ النورسي تعبيرًا وجيزًا جدًّا أفرد أعلامُ أئمة علم الكلام أمثال السيد الشريف الجرجاني والتفتازاني صفحاتٍ لبيانها وشرحها.

أجل، إنَّ الإرادة ميلانٌ محض أو تصرفٌ في الميلان، أي هي بذلُ الإنسان المخيّر بين شيئين جهدًا وسعيًا لاختيار أحدهما، وهي شرط عادي فقط، ولا تُلتمس أيّة علاقة بينه وبين النتيجة في إطار قانون السبب والنتيجة، وهذا كالعلاقة بين الإنارة والضغط على زر شبكة كهربائية تنير الدنيا، وكانهيار الأنظمة العملاقة أو قيامِها بنفخةٍ منكم.

(٧٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٥.

وتبيَّـن مـن الأمثلـة أنَّـه لا علاقة بين السـبب والنتيجـة قطعًا؛ إذ يسـتحيل أن يؤدي ذلك السبب إلى هذه النتيجة في الواقـع وفي ظل الظروف الطبيعية، وتسمى هذه الإرادة "إرادةً نسبيَّةً اعتباريّة".

وبعد هذا التمهيد الوجيز إليك مسألة الامتحان بالإرادة:

١- إننـا نُمتحَن بإرادتنا، فكيف لأمرٍ صغيرٍ "الميلان أو التصرف في الميلان" أنْ يأتي بنتائج عظيمة كهذه؟ لا تناسب معقولًا ومنطقيًّا بين السـبب والمسبَّب، وهذا يُظهر لنا عظمة الله المطلقة، ويبين بعدًا مهمًّا جدًّا من أبعاد هذه العظمة، وربما أخطأتُ بإسـناد لفظ "البُعد" إلى الله تعالى، لأنه لفظٌ يعبرُ عن الكمّ والكيفية، غفرانك اللهم وعفوك إن أخطأت... أجل، فكما ذكر الإمام بديـعُ الزمان: إنّ خروج شجرة صنوبـر عظيمة من بـذرة صغيرة جدًّا، وخروج الفرخ من البيضة -أو بعبـارة أدقّ "مـن عقـدة حياتية صغيرة جدًّا داخـل البيضة"- كلُّ هذه تجلياتُ قدرةِ الله تعالى وقوته[٨٠].

وما إرادتنا إلا شـيءٌ كهـذا، أي إنَّ دورَ البذرة أو العقدة الحياتية في الشجرةِ والفرخِ أيًّا كان هو أيضًا دور إرادتنا في الأمورِ التي نقوم بها وفي نتائجِها مهما كانت عظيمة، والحقيقة إن كلًّا منها يدل على حقيقـة "الله أكبـر"، لذا نـردِّدُ "الله أكبر" أو نسـمعها ثلاثيـن مرةً على المـآذن خمس مرات في اليوم، بل إن المؤمنين الذين يرقَون في أفق "هل من مزيد؟" لا يكتفون بهذا؛ فيكبِّرون في أعقاب كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة قائلين "الله أكبر"، ليعلنوا هذه الحقيقة مرّةً أخرى.

(٨٠) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٣٥٩.

٢- أيًّا كانت ماهية الإرادة، فلا بدّ من اعتبارها والاعتداد بها طالما علّقَ الله تعالى بعض الأشياء عليها؛ لأنّه تعالى قدَّر مستقبلنا وفقًا لإرادتنا، أي كأن الإرادة خطة ومشروع بالنسبة لمستقبلنا؛ ولما قدَرْنا نحن أهلَ السنة الإرادةَ حقَّ قدرها حققنا التوازن وتجنبنا إفراط المعتزلة وتفريط الجبرية. أجل، إن بعضهم يزعمُ أنه لا قيمة للإرادة مطلقًا، ومنهم من يرى أن الإرادة هي كلُّ شيء، حتى إن بعضهم يزعم أن لها وجودًا خارجيًا"، أما أهل السنة فإنهم يقولون: الإرادة أمر اعتباري، وما دام الله ﷻ علَّقَ أشياء كثيرة على الإرادة، فلا نلتفت ولا ننخدع بصغر الإرادة ولا بعظم الخلق والمخلوق، وبهذه الرؤية ننجح في الامتحان ونبلغ درجة الاستقامة في الفكر.

إننا أهل السنة بهذا نقدُر الإرادة قدرها وننظر إلى المستقبل والذنوب من وجهة النظر هذه.

٣- استخدام الإرادة في الوجهة التي شرعها الله أمرٌ مهم جدًّا؛ فإن كنتم تسعون باستماتة في سبيل الدعوة التي تدافعون عنها لكنكم تبخسون إرادتكم حقَّها، ولم تستخدموها بتوازن ولم تغذّوها بعناصر تقوّيها، فمن الممكن أن تقعوا في أخطاء لا عاصم منها؛ أي ستخفقون في امتحان الإرادة إن اجتهدتم دون أن تعتمدوا طرز عصر السعادة وتُراعوا الظروفَ الجارية وعنصرَ الإنسان وإرادته، وقلتم: "سنتظاهر من أجل خدمة الدين، ونناضل بالسلاح، ونجرب الطرق السياسية، ونقاوم العالم بقوَّةٍ وقسوةٍ، ونمضي نحو الهدف من هذا الطريق"؛ إنه ما ينبغي أن تصطدم الإرادة بالفراغات المنطقية

والحسية، بل ينبغي أن تُمَدَّ دائمًا بعناصر داعمة متنوعة، وأن تتآزرَ الإرادةُ والشعور مطلقًا في هذا الاتجاه، لتصل إلى عمق أبلغ، وهنا قد تُعزَّر الإرادة بِحِرَاكٍ فاعلٍ من لدن اللطيفة الربانية التي هي مهبط الوحي والإلهام.

عندئذ ستصل الإرادة تحت سُرُج الوحي أو الإلهام النيّرة إلى أبعاد متنوعة، سواء في مجال الخدمة أو العبودية، فيضاعف الله أجر العبادة والخدمة الواحدة منها آلافًا، ويتحقق النجاح في الامتحان بخدمات إرادية من هذا القبيل، أعني تلك التي تتم دون تردٍّ في الفراغات المنطقية والحسية.

٤- ومن أبعاد المسألة من حيث العلاقة بين الإرادة والامتحان: أنْ نقومَ بما علينا، ونكفّ قطعًا عما هو من شأن الربوبية. أجل، فهذه أيضًا مسألة إرادة؛ لأنّ طلبَنَا لأمورٍ لا يقوم بها إلا الله أمرٌ يفوق إرادتنا، ويفضي إلى التردي في اليأس ونخفق في الامتحان؛ ولينظرْ إلى هذا الأمر أيضًا في ضوء ما ذكر الإمام بديع الزمان أن "جلال الدين خوارزم شاه" كان في طريقه إلى الحرب فقال له الوزراء: "ليُظْهِرنَّك الله على عدوك، ولينصرنك عليهم"، فأجابهم: "عليَّ أنْ أجاهد في سبيل الله طاعةً لأمره سبحانه، ولا حقَّ لي فيما هو من شؤونه ولم أُكلّف به؛ فالنصر والهزيمة بتقديره سبحانه"(٨١).

أجل، لطالما حملت ظروفُ الماضي القريب في هذا البلد أمثالَ محمد عاكف وسليمان نظيف على ضروبٍ من اليأس؛ ولعلّ عدم

(٨١) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثالثة عشرة، ص ١٧٩-١٨٠.

استيعاب مسألتنا هذه من وجوهها كلّها أودى بقامات سامقة في اليأس يومئذ، "يوم أن كثرت هزائم أمتنا" كما قال نجيب فاضل.

إذًا علينا القيام بمهمة العبودية؛ فتصرُّفٌ يتضمن المساومة في معاملتنا مع الله مثل: "هل تفعل لي كذا إن فعلتُ كذا" إسفافٌ، لا يمكن تصوره في باب العبودية أبدًا، فلنقم بواجباتنا لعلنا نفوز في امتحان الإرادة ما لم نقحم أنفسنا في شأن الربوبية.

وقد يرد سؤال: "أليست الإرادة ذاتها طريقًا للنجاح في امتحان الإرادة؟" أجل، يكون النجاح في امتحان الإرادة بالإرادة أيضًا؛ فوجب شحذ الإرادة دائمًا، والدعاء والاستغفار عنصران مهمان جدًّا، يقول الأستاذ النورسي: "إن الدعاء والتوكل يمدان ميلان الخير بقوة عظيمة، كما أن الاستغفار والتوبة يكسران ميلان الشر، ويحدان من تجاوزه"(٨٢).

إن الإنسان أحيط وطُوّق تطويقًا بالشهوات التي حُفَّت بها جهنّم -كما جاء عن الصادق المصدوق ﷺ- أي بشهوة الطعام والشراب والنوم والدعة والخواطر والمشاعر المثيرة لرغباته الجسمية، حتى إنّ أيَّ خطوة في هذا الاتجاه ربما تكون هي نفسها ضياعًا وانغماسًا في خضمّ الشهوات، فمن علِقَ بأي منها وقع فريسةً لنفسه الأمارة وهلك، وسيأتيه يوم يكون فيه ضعيفًا أسيرًا لها كليّةً، والاستغفار كتعويذة تجتَثّ جذور كل أنواع الشر وكل ميلانٍ إليه.

(٨٢) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، المبحث الثاني، ص ٥٣٦.

نعـم، إنَّ الاسـتغفارَ الذي يجتـثُّ جذورَ الميلان إلى الشـرِّ هو: الندمُ على الذنوب السـابقة، والثبات على الاسـتقامة الراهنة، والعزم علـى عـدم العودة إلى الذنوب في المسـتقبل، والإصـرارُ على هذا، والأهمُّ هو تعزيزُ هذا، أي شعور الوجدان التامُّ بالتوجُّه إلى الله تعالى.

أمـا تعزيز الميل إلـى الخير بالدعاء، فالقـرآن الكريم يحثّنا عليه في مواضـع عدَّة، منها: قوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ (سُورَةُ غَافِرٍ: ٦٠/٤٠)، وقولـه : ﴿**وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيـبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ١٨٦/٢)، أي حذارِ أن ييأس عبادي؛ فأنا أقربُ إليهم من حبل الوريد، فإن عجزوا عن الدعاء العملي فعليهم بالقولي، فإن عجـزوا فليتوجهـوا إليَّ بقلوبهم، أي إن كان ما يقولونه بألسـنتهم لا يطمئن نفوسهم فليسلموا أنفسهم إلى سَعَةِ ضمائرهم، ويقولوا:

"إلهي! سألتك ببعض الأدعية ما سألتُ وما أكثر ما سألَكَهُ الأنبياء والأصفيـاء والأوليـاء والمقربون والأبرار مما ينبغي أن أسـألكه ولم أفعـل لعجـزي عن معرفتهـا وإدراكها، وهـذا عبدك يتأمَّـلُ هذا كلّه، ويتوجَّـهُ إليـك ثانيـةً بذراته كلّهـا، ويقف على أعتـاب باب رحمتك وكلّه أنينٌ".

أجـل، علينا أن نعلـوَ بهممنا، ونوجّه وجوهنا لربنا ببصيرة عميقة أي إنه توجّهٌ لغني مطلق لا تنقص خزائنه مثقال ذرة ولو وَهَبَنا جنانًا يوميًّا لا إلى مخلوقٍ عاجزٍ ضعيف.

هـذا والحقيقة المذكورة في الآية الكريمة: ﴿**قُـلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾ (سُـورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٧٧) تكشـف أن توجُّهَ الإنسـانِ إلى اللهِ بالدعـاءِ جانـبٌ مهمٌّ جدًّا؛ لأن الدعاء يـكاد يكون أخلص العبادات؛ فبعض العبادات عُرْضة للرياء والسـمعة، بل قد تُؤدَّى كَرْهًا بمقتضى ما يظهر من أسـباب، أمَّا الدعاء فهو سـلاح نتوشَّـحُه عندما تتهاوى الأسـباب جذريًّا، فلا ينبغي الاعتماد على الأسـباب في الدعاء، ولا يدخله الرياء والسـمعة غالبًا، إذ يتوجه الداعي بقلبه أجمع حيث لا أحد معه مطلقًا، يمدّ يديه وهو يتلَّوى ويتضرَّع ويبتهل إلى ربه تعالى ساجدًا قد أَغرقت عيونُه مُصَلّاه.

ودعـاء كهذا يعـزز الميل إلى الخير، أي يُكسـب إرادة الإنسـان القـوة والقـدرة على فعل الخيرات، فهذا رسـول الله ﷺ يسـتغفر في اليوم سـبعين[٨٣] أو مائة[٨٤] مرة، ويلازم الدعاء في شـؤونه كلّها عند كل حالة من أحواله تقريبًا، بدءًا بسماعه صياح الديك إلى ارتدائه ثوبًا جديـدًا، وهكذا يمكن أن نصبح يومًا فيومًا أهلًا للدعاء والاسـتغفار بملازمتنـا لهما، ولو بأن نُكره أنفسـنا قليـلًا بادئ الأمر، فهذه الأمور كلّها من الامتحان بالإرادة في مقام العبودية.

ولـ"يونس أَمْرَه" مقطوعة في الإرادة يحسن أن نختم بها:

وأُقعِدتُ لَمَّا غلبَتْني نفسٌ قد عتتْ
جَشِعةٌ لا تشبع من دنيا بها رتعَتْ

(٨٣) صحيح البخاري، الدعوات، ٣؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٤٧؛ سنن أبي داود، الوتر، ٢٦.
(٨٤) صحيح مسلم، الذكر، ٤١؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٤٧؛ سنن ابن ماجه، الأدب، ٥٧.

عميَتْ إذ ما قميصَ الغفلة ارتدَتْ
فغدتْ عاجزةً جاهلةً بأن دنياها انقضت

ربّ هل أَسلمَ مَن لقميص الغفلة ارتدى
وغدا يتبع أمر النفس والهوَى الرَّدَى؟

يكسب ما يكسب ثم يفنى
ويضنُّ بالمثقالِ في أمر الهدى

مولاي ارفع غفلةً قد غشيت
عيْني ولا تسوّد الوجهَ إذا ورَدت

فهلمَّ واستمسكْ بنصح يونُس المصيب
إذ ليس لذي الدنيا يوم القيامة نصيب

obeikandl.com

العبادات المالية والبدنية

سؤال: العبادات ماليّة وبدنيّة، فهلا توضّحون المسألة خاصَّة العبادات المالية للمؤمنين الموسرين؟

الجواب: العبادات أصلًا قسمان: مالية وبدنية، ويُخطئ من يظنّ أن هذا التقسيم يعني أنهما متباينان لا صلة قريبة أو بعيدة بينهما، فكلٌّ منهما متعلّق بقسيمه ومعزّز له.

فالصلاة مثلًا عبادة بدنية لكنها لا تنفصل عن المادة جذريًّا، فالزمان والمكان فيها عناصر مادّية، وهما جَلِيَّانِ عند النظر إلى شروط الصلاة قبل الدخول فيها وبعده.

والزكاة عبادة ماليَّة، وهي بدنية أيضًا من حيث إنَّ الفردَ يكدُّ في السوق ويسعى حتى يغدوَ أهلًا لوجوبِ الزَّكاة عليه.

والحجّ عبادة لها وجه مالي هو النفقة وآخر بدنيّ هو الرحلة الطويلة والمناسك من طواف وسعي ووقوف ورجم للشيطان وغيرها، وهكذا الصوم.

إذًا العلاقة قوية وعظيمة جدًّا في هذه الأركان الأربعة، فكأنّ ما نتقرب به إلى الله في باب العبودية لا ينفك عن المادة.

obeikandl.com

وبعد فموضوع السؤال أنَّ للمادة دورًا رائدًا في الدفاع عن القرآن والإيمان والسعي في نشرهما اليوم، ومن هذا الجهادُ بالمالِ في سبيل الله، أي بذله في سبيل الحق بالزكاة ونحوها كالهبة والوقف والصدقة.

وتنبغي الإشارة إلى دقيقةٍ لطيفةٍ قد تُفْهَمُ خطأً: إن من وهبهم الله المال لا تُغني زكاتهم ولا أضعافُها من الصدقات عن السعي بأبدانهم في سبيل الخدمة، وقد ذكرت آرائي هذه مرارًا في مناسبات كثيرة، وأُوجزُها هنا لمناسبتها:

كان أبو بكر ﷺ من أثرياء مكة يوم أن عرف مفخرة الإنسانية ﷺ، أما يوم توفي فميراثه معلوم. أجل، إنه لما عرف رسولَ الله ﷺ أنفق كلَّ ما يملك، وأفناه في سبيل الإسلام، وأقدمَ بنفسه في كل نضال ومعركة لا سيما الهجرة إلى المدينة فشهد بدرًا وأحدًا والخندق وخيبر وتبوك وغيرها.

فما كان إنفاق المال كله في سبيل الله لِيَعُوقَه عن الكفاح بنفسه، ولو فرضنا محالًا أنه ﷺ لم يشهد أحد هذه المشاهد، فليس ببعيد أن يقول له رسول الله ﷺ ما قاله لكعب بن مالك ﷺ لما تخلف عن غزوة تبوك، وأن يهجره ولا يكلمه وينهى عن كلامه حتى يأتي بيان سماوي بتوبته كما فعل بكعب وصاحبيه.

أجل، إن المادة أحيانًا كانت في الصدارة في خدمة الإسلام والقرآن، وهذا ليس مطلقًا، بل يختلف باختلاف الزمان والمكان وأحوال الأفراد.

وهذا الضبط للمسألة يتيح بحثها من وجهين:

١. إنفاق الناس ما قلّ أو كثُر مما يملكون، وصرفه في سبيل الله تعالى.

٢. التضحية الممكنة في هذا وَفْقَ المقادير الشرعية.

أجل، اليوم لدى المسلمين فهمٌ معوجّ جدًّا وخاطئٌ بقدر اعوجاجه، يقول بعضهم: "لستُ من أولي السَّعة، فلا ثروة لديَّ، لذا لستُ معنيًّا بالعبادات المالية من زكاة وهبة ووقف وصدقة وغيرها". كلا، إن هذه رؤية خاطئة قطعًا، فكلٌّ مكلف بعبوديته تعالى بقدر ما وهبه من إمكانيات، فمن عنده عشر ليرات ومن عنده مائة ألف ليرة كلاهما يؤدِّي حقوق الله تعالى مما أوتِي، ويسعى للإنفاق ونيل رضا ربه بأداء حق العباد منه، وأخصّ يومنا هذا، فعلى الجميع أن يُسهموا، أي كلّ من يؤمن بهذه الدعوة العظيمة، كلٌّ بقدر ما أُوتِي من أجل إعلاء كلمة الله وعلوّها، لذا لا يصدر عن المؤمن بل يستحيل أن يصدر عنه كلام مثل "ما زلتُ فقيرًا، وعندما أُصبح غنيًّا سأنفق في سبيل الله".

يقول بديع الزمان: "إنّ ذرة من عمل خالص لهي أفضلُ عند الله من أطنان من الأعمال المشوبة"(٨٥)؛ فالله سبحانه عندما يزن الأعمال لا ينظر إلى قلتها أو كثرتها بل إلى ما فيها من إخلاص.

(٨٥) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، الذكرة الثالثة عشر، ص ١٨٢.

والخلاصةُ أنَّ كلَّ إنسانٍ مكلَّف بالتعبئة في سبيل الله تعالى بما أُوتِي، فلو أنَّ لأحدهم فرسًا لوجب أن يلحق بالرَّكبِ، ولو أن لآخر سيارة للزمه أن يلحق بالجيش كذلك، ولو كان لآخر مع خيله معدات عسكرية فليأخذها ويذهبْ؛ فيستوي الجميع في الجهاد، ولعلهم يتساوون عند الحقّ تعالى، فهم في الأجر سواء، ذلك أنهم جميعًا جيَّشوا كل ما يملكون.

ومن المفيدِ التطرُّق إلى أمرٍ آخر: الإنفاقُ الكثيرُ مع الحفاظ على الإخلاص صعبٌ جدًّا، إنَّه صعبٌ ولكنَّ ثوابَه جزيلٌ جدًّا بناءً على قاعدة: "الغُنْمُ بالغُرم". أجل، إنّه لَأمرٌ يأتي بالثواب والأجر قطعًا أَنْ يحافظ المرءُ على إخلاصه وصدقه وصلته بربّه في فترةٍ المادّةُ فيها رفاهيةٌ أو تعِدُ بالرفاهية، بل تفتح أبوابَ الرياء والسمعة.

وللمسألةِ وجهٌ آخر وهو معيار التضحيةِ في الإسلام، ولا أعلم معيارًا ثابتًا في هذا الموضوع. نعم، جاء في النصّ مقادير وأنصبة ثابتة للزكاة، تبيّن أقلّ ما يكلَّف به المؤمن بالزكاة وأقلّ ما يرفع عنه المسؤولية.

وكما لا نستطيع إنقاصَ عدد الصلوات الخمس ولا زيادتها، ولا تغيير أوقاتها أو عدد ركعاتها، كذا فلنفهم مسألة أنصبة الزكاة ومقاديرها، وفي حديث الترمذي: "**إِنَّ فِي المَالِ لَحَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ**"(٨٦)؛ قال شُرّاح الحديث: لرئيس الدولة أن يطلب ذلك من رعاياه عند الحاجة؛ هذا ولم تُطلب الأموال فحسب، بل الأرواح

(٨٦) سنن الترمذي، الزكاة، ٢٧.

أيضا يوم صارت سيادة الدولة والأمة عُرْضة للخطر، فضحت الأمة بهذا عن طيب نفس؛ إذ يلزم فعلُ ما يجبُ فعله مطلقًا ولو بأن تنفق أموالٌ أضعاف مقادير الزكاة لكيلا يُلِمّ بها هذا الخطر.

ولو تأمّلنا يومنا هذا من خلال هذا المنظور، لَبدا أن الدين المبين انتُهك، وثمة محاولات لتنسية الأجيال ذكرَه الجميل ﷺ؛ ولا وجودَ على وجه البسيطة اليوم لمجتمعٍ إسلامي شريفٍ محترمٍ له وزنه، ولا مجال للحديث عن وجود مجتمع قوي قادرٍ على حمايةِ المسلم وحقوقه والدفاع عنه ضد القوى الظالمة، وعُتاة القوة الغاشمة.

وحسبُنا هذه الأسباب ليقدِّمَ المسلم روحَه في صُرَّة، لا نصفَ ماله أو مالَه كلَّه فحسب، وينهض للنضال والكفاح في سبيل الإسلام. أجل، هذا السعي من الأعمال الضرورية التي يلزم القيام بها كي يتغير طالع المسلمين النكد، ويجريَ كل شيء في مصلحتهم، وهذا لا يتحقق بربع العشر فحسب، فعلى كل من وعى الدعوة أن يعمل بجد لتحقيق التوازن بين الدنيا والعقبى، وأن يشارك هذا الركبَ بأوجه الإنفاق التي يبذلها بقدر إيمانه واعتقاده زيادة على الحدِّ الأدنى في الزكاة، بل إنه مضطر للمشاركة في هذا الركب؛ وأعتقد أنه ما من نفقةٍ ينفقها اليومَ في سبيل الله إلا حظيت بالقبول عند الحق ﷻ، وسيُثاب على الواحد بالآلاف.

أجل، إن كل إنسان مكلفٌ بالخدمة في سبيل الله -بنفسه وماله- بقدر إيمانه، ولا حدّ لهذا أو هو نسبيّ، فعلى قدر إيمان الفرد بالله، وشعورِه بوجوبِ رفعِ اسمه تعالى الأعظم في أفقنا، ويقينه بأنَّ اسمه

الجميل ﷺ شفاء لصدورنا، تكون التضحية بالروح لا بالمال فحسب، يضحي الفرد ويقول: "آهٍ، لو أن لي أربعين نفسًا لضحيتُ بها" كما فعل سيدنا عبد الله بن حذافة السهمي ﷺ، فلقد أسره الروم وأذاقوه من صنوف العذاب ما لا يخطر ببال ولا يتخيله عقلٌ أو خيال، فمن غطسٍ بقِدرٍ يغلي ماؤها إلى سحبٍ على الوجه وهو موثق بذيل الخيل، إلى غير لك من صنوف العذاب... فلما رأوا رباطة جأشه راحوا يحلمون ويتمنون لو أنه تنصَّر، ثم قرّروا قتله، فأخذ يبكي، فعجبوا لبكائه وهو من تحمل كل أنواع العذاب تلك، عجبوا أيّما عجب، فقيل له: ما يبكيك يا عبد الله، أتخاف الموت؟ فقال ﷺ:

"إِنِّي إِنَّمَا بَكَيتُ لِأَنَّ نَفْسِي إِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، تُلْقى فِي هَذِهِ الْقِدْرِ السَّاعَةَ فِي اللهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بِعَدَدِ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي نَفْسٌ تُعَذَّبُ هَذَا العَذَابَ فِي اللهِ"(٨٧).

هكذا فلنكن، نستقلّ ما ننفقه كي ننهض بالحقيقة التي نؤمن بضرورة رفعها ولو أنفقنا كل ما نملك كما فعل ذلك الصحابي الجليل، فلنشاركه مبدأه: "يا ليتني كان لي من الأنفس عدد كل شعرة فيَّ، ثم تسلط عليَّ فتفعل بي هذا".

(٨٧) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ٣٥٨/٢٧؛ ابن الأثير: **أسد الغابة**، ٢١٣/٣؛ ابن كثير: **التفسير**، ٥٢١/٤ (في تفسير الأية ١١٠ من سورة النحل).